(٢-١)

■ التحديث في الإبداعات الإنسانية والمكانية بآفاقها المستقبلية هي اكثر كمالاً وتماسكاً وقدرة على الثبات والاستمرارية عندما تكون مؤسسة على كينونة ان الحاضر جزء لا يتجزأ من الماضي وهي مقومة تاريخية لها دلالات واسعة ومتشعبة جسدتها سنة التاريخ لسآلة تفاعل عنصرية الاساسين (الإنسان والمكان) بهذه المقومة وحدها تكاملت إبداعات الإنسان عبر زمن الحاضر القصير ليصبح هذا الزمن عبر المكان طويلاً من خلال تكامله وتفاعله مع مقومات ومعطيات الماضي الإبداعية.

تتناول هذه الدراسة – بطريقة جدلية– في إطار هذا المفهوم قضية تتعلق بالتطور الإنساني والمكاني لمدينة صنعاء، هذه المدينة التي تستجمع نقيضين في ذات المكان العتيق النبيل بالعمق التراكمي لتجربة فريدة تعكس صورة مضيئة لمستوى الرقي الحضاري في مجال الحفاظ على بيئة مطلقة النقاء والجزء الحديث بالتجربة السطحية لتفاعل الإنسان مع الوسط المحيط افرزت معها أسوأ إبداعات التدمير البيئي، عكس مستوى الانحطاط الحضاري الذي أدى الى الوضع الحالي الكارثي في مجال التدمير البيئي لهذه المدينة العريقة.

ومن خلال التناول لذلك الجانب المثير للجدل –حصراً– الفجوة التي وجدت مكانها وفي غفلة من تاريخها المعاصر بين قديمة لمفهوم جدلية المقومة التاريخية والذي نجم عنه هذا الجزء النقيض.

تهدف هذه الدراسة جوهرياً، من خلال الدراسة المقارنة، ليس لتحديد حجم التدمير الذي وجد مكانه فحسب، بل للوقوف طويلاً امام خلفية الاسباب التي أدت الى هذا التدمير البيئي وأهمية هذا التأطير للهدف الجوهري جاء استجابة لسؤال محير مضمونه كيف امكن لهذا التدمير وفي زمن قياسي ان يجد مكانه؟ مع أن التجربة الإنسانية الفريدة والمكتنزة لتأمين وسط يتسم بالنقاء البيئي في الجزء القديم من المدينة كانت بادية بجلاء وكان الأولى الأخذ بها وإعطاؤها بعداً اعمق في التحديث لتتلاءم مع تحديات التلوث الذي صاحب الجزء الحديث من المدينة .

د. عباس أحمد عبدالولي ●

بتجربتها القديمة والحديثة:

قراءة معاصرة للواقع البيئي لمدينة صنعاء

هذه هي المنطلقات الرئيسية لفكرة البحث وهنا وفي سياق المحاولة لإعطاء صورة واضحة ومتكاملة عن ما يتضمنه هذا البحث نستعرض فيما يلي المحاور الهامة التي اتخذت كمرتكزات ومنطلقات أساسية للدراسة في اتجاهات ثلاثة هي:

– الموروث الحضاري لمدينة صنعاء.
– المد الحضري لمدينة صنعاء.
– الحلقة المفقودة.

من خلال هذه النظرة العميقة التامل وعلى احترافية الوعي الأكاديمي والخلفية الذهنية التي اتت إلهاماً من ردة الفعل العالمية التي ترى ان البيئة اليوم تعارض المدنية الحديثة جملة وتفصيلاً وتتصادم معها وتسعى الى إخياء وتفعيل تجربة الماضي .. يتخذ البحث نهجاً لقراءة معاصرة لواقع تجربتين وجدت معالمهما في ذات المكان وقد سعت هذه القراءة إلى الإجابة على سلسلة من التساؤلات اهمها:

● لماذا ومتى حدث هذا البتر؟
● ماهي الحيثيات التي أدت الى الدفع بمنظومة التطوير الحالي؟
● الى أين اخذنا هذا الاستهتار بمقدرات الموروث؟
● ما شكل الخارطة المكانية للبيئة فيما لو لم يجد هذا البتر مكانه؟
● ماهي إمكانية التطوير للتقنيات الموروثة في ظل معطيات التحديات الحالية؟

وفي هذا السياق لعلي ألمح في وجه القارئ سؤالاً جدلياً لمسألة الحلقة المفقودة السالفة الذكر مضمونه:

ماهي الجدوى العملية من تشخيص ودراسة تجربة عفا عليها الزمن ؟

ليضع مجمل فكرة مشروع الدراسة وبالتالي الورقة نفسها على المحك.

وبالذات مع وجود تقنيات متقدمة أكثر فعالية في متناول اليد فتقنيات كهذه قد جنبت العديد من البلدان –دول الجوار مثلاً – المعاناة من معضلات البيئة من اساسها.

لا شك ان الإجابة ستكون سلباً عند الاخذ بمدلول معانيها المجردة إلا أن السؤال سيظل مثيراً للجدل من خلال نظرة تامل موضوعي فكما اشار (ماودسلي وآخرون) «ليس في هذا العالم من شيء يتحرك بذاتية مستقلة فكل الاشياء من حولنا متداخلة ببعضها البعض بطريقة ما، تجعل من إهمال التأثيرات الخارجية من حولها على الداخلية منها مساراً سيظل مشوشاً لقدرة لقدرة فهم خصائصها وأي حالة من الأهمية بمكان ان تكون متكاملة».

إننا نتعثر دائماً في حركاتنا التنموية والتطويرية في كافة المجالات وهي سمة لصيقة بنا خاصة، وهنا نجد سؤالاً نذيراً يفرض نفسه بشدة: لماذا؟ وكي تكون الإجابة شافية تجدر الإشارة الى مقولة كورية قديمة مضمونها:

«اولئك الذين ينظرون الى ماضيهم دون بصر، هم دون بصر عندما يتطلعون الى الكينونة المجسدة بتلك الحكمة تحديداً هي السبب الذي ادى الى الدوامة الحالية والتي ستظل ابداً الدوامة الدائمة لكل حركات التجديد المستقبلية .

فالميمن كإحدى الدول النامية واجهت العديد من المتطلبات المستعجلة خلال فترات الهدوء السياسي في مجالات التشييد للبنية التحتية، لا جدال أن المعرفة والتطوير العلمي والتقنيات الحديثه –بصورة متبصرة –عوامل تعجل في تامين تلك المتطلبات. مع هذا وتحت وطأة الضغوط المعنية بمسائل المعضلات وثيقة الصلة بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية أو تلك المرتبطة بالبنية التحتية لليمن، من السهولة بمكان ان نوجه همنا نحو المعضلات نفسها ولكوننا اغفلنا– وما زلنا نغفل– الكينونة المتجسدة في ان العلوم والتقنيات هي في جوهرها تمثل فكرة الثقافة الحية للتفاعل الإبداعي، من الأسباب التي تجعل في إيجاد الحلول، لمعالجة تلك المعضلات من القضايا التي غالباً ما تكون غائبة تماماً.

أن نتعلم وان نبدع في ابتكاراتنا هو التعبير الحقيقي المجسد للثقافة الحية، ومن الحيوي أن نولي اهتمامنا لمسائل إيجاد الحلول للمعضلات بنفس القدر الذي نوليه للحصول على الحلول، وعلينا ان ندرك أيضاً ان العلوم والتقنيات والإبداع في الابتكارات والمقدرة على التعليم عناصر تتكامل في ما بينها في العملية الموجهة نحو المقدرة على إيجاد الحلول للمعضلات وفي تهورنا المندفع نحو الحصول على الحلول يحتمل ان نجدنا نصاب بافات السعي الدائم لشراء التقنيات المعلبة ونغفل ان كل مجتمع قام بتطوير تقنياته بكيفية انسجمت مع موروث ثقافاته وإمكانيات مصادره التي يمتلكها فالتقنيات المتطورة لم تات من فراغ فهي نتاج تراكمات لتجارب إنسانية في معالجة معضلات لها خصوصية مكانية.

المنهجية الاستقصائية المعتمدة كأداة للبحث

إن المواضيع التي يتناولها هذا البحث كمرجعية وكمنطلقات نحو الأهداف الجوهرية متداخلة ومتشابكة ومتراكبة فوق بعضها البعض عناصرها الفكرية متنوعة تاريخ فسياسة ففن فتقاليد اجتماعية فأمن .. الخ.

فلما كان الأمر كذلك فلا يمكن بحال من الأحوال ان يمتد القلم إلا حيث يسمح العقل حدوداً للمد، ولا يمكن للخيال ان يمتد متجاوزاً الحقيقة بالمزايدة أو منتقصاً منها بالإهمال.

إن التراكمات الحضارية للموروث على امتداد الزمن الطويل لهذه المدينة عظيم وخصب وموح وملهم ونافع وذو آفاق مرنة للتحديث، وهنا ايضاً، وفي خط موازٍ لوجهتنا هذه، لا نريد ان ندعي لهذا الموروث الكمال المطلق فنضل ضلالاً بعيداً ولا ان نحمله – بغلو – اكثر مما يحتمل في اصله ولكننا نطلق النذير فحسب على ان انعدام القراءة له برؤى منهجية اصلاً أو ان القراءة نفسها كثيراً ما تكون من الزاوية التي تاتي إملاء من حاضر غير حاضرنا أو على نقص الوعي لمن اتخذ منه مادة للقراءة أو البحث أو على غير احترافية الوعي الأكاديمي قد جعلت العديد ممن خاضوا في مضمار هذا النشاط يعملون على إركان ذلك الموروث الى زاوية الإحياء بغرض الترفيه كموروث إنساني غاية في النبل وضمناً التحنيط –بوعي أو دون وعي – لمعارف إنسانية سامية كان في إمكانها مغالبة الزمن ومقارعة الدهر.

نحن هنا أمام معضلة تم تعريف المهام فيها بشكل واسع ومجرد بمحاور ثلاثة محددة المعالم، وربما جزئياً يبدو عياناً إمكانية ان نحدد بسهولة المسار الصحيح للتفكير في الكيفية التي يستوجب نهجها سبيلاً في اتجاه بقاء الحقيقة:

ماهي المسائل التي يجب دراستها، ماهي المعلومات التي يجب جمعها كماً ونوعاً وماهي الاداة اللازمة للتحليل؟ وهنا يجدر القول ان خطوة البداية هذه هي اهم وأخطر مرحلة من مراحل الدراسة والبحث هذه وتطوير منهجيتها هي الأخرى الأصعب على الإطلاق.

مشروع هذا العمل من حيث النوع يندرج في إطار «ذات الطابع التجريبي» وهو النوع الذي يقتضي ان يجانب الوضوح بالقدر الشامل للمعنى بل ربما الشفافية المطلقة وبالتالي فإن المنهجية التي يراد الأخذ بها بالضرورة يجب ان تتسم بالاستثناء –بعبارة اكثر وضوحاً– منهجية المسار هنا هي اتسام الحركة وفق مسار منطقي في تسلسله وبالقوة في ربط جملة المعطيات التجريبية بطريقة تجعل مخرجاتها في المطاف الأخير بالدقة التي لا تدع مجالاً للجدل.

منهجية المسار هي خطة اداء مسبقة الإعداد تحدد كيفية الانتقال من هنا الى هناك حيث «هنا» تمثل مجموعة الاسئلة الابتدائية للإنطلاق ، والتي تتطلب ان نجد لها إجابات شافية و«هناك» تمثل المخرجات المراد الوصول إليها مجموعة الإجابات وبين (هنا وهناك) أي نقطة البداية والنهاية لا شك في وجود عدد من الخطوات الرئيسية التي تتضمن الجمع والتمحيص والغربلة والتحليل.

وفي هذا السياق يجدر التنويه بأن منهجية المسار اكبر بكثير من أن تكون خطة عمل فالغرض الرئيسي من منهجية المسار هو السعي دائماً إلى تجنب تلك الحالات التي تكون الدلائل فيها غير ذات شأن بما هو حقيقي مما يجعل من المخرجات مغايرة لاستراتيجية الأهداف والدقة المتوخاة منها.

وعلى ضوء هذا المعنى فإن منهجية المسار تعالج معضلات منطقية وليست معضلات لوجيستية، لاشك ان مضامين منهجية المسار على قدر من الأهمية والحديث عنها هو خارج إطار حيز هذه الورقة.

الخلفية الذهنية لقراءة عصرية

إنجاز الأعمال الهندسية في الوقت الحاضر لم يعد من اختصاص المهندسين المعنيين بصناعة البناء، بالرغم من ان إدراك هذه الاعمال وتاثيرها تلعب دوراً هاماً فالتوجهات الحديثة تتعلق بالنوعية للإنشاء (الدور المعني به الإختصاصيون) والأخرى ترتبط بالأخذ في الحسبان البيئة والوسط المحيط من المناظر الطبيعية وهذه تسهم دون شك في تطور ممارسة المهنة فلو أخذنا بالحسبان انسجام الفن المعماري مع الطبيعة فسوف يبقى امامنا إنجاز سلسلة من المهام على صعيد المحافظة على الوسط الطبيعي والبيئة بالمعنى الواسع للكلمة خلال مراحل «ورشات العمل» دون ان ننسى وجود آثار يمكن ان تظهر خارج النطاق المحدد للمشروع في ما يلي خطوط عريضة تمثل المرتكزات الأساسية للتقدم في هذا المضمار:

● تكامل المنظر الطبيعي مع التصميم المعماري في الأعمال الإنشائية.
● الاستعمال الأمثل للموارد الطبيعية.
● حماية الطبقات الحاملة للماء والأوساط المائية.
● الحفاظ على المجموع الحيواني والنباتي.
● احترام سكان المناطق المجاورة.

في كتاب صدر حديثاً لـ (والتر اندرسون) بقدم في إحدى تنبؤاته التي أتت سياقاً كردة فعل للثورات العلمية لعصر تكنولوجيا المعلومات قائلاً: «البيئة اليوم تعارض التكنولوجيا في إخلاص

صنعاء مدينة عريقة ونموذج للمدينة التاريخية التي جمعت موروثا حضارياً تراكمياً مهولاً. البناء التقليدي للمدينة من روائع العمل الهندسي يعكس الإبداعات المعرفية لقدماء البناة

وفي شيء من الغفلة، وترنو في صبابة رومانسية الى الماضي».

ما اقدمنا عليه خلال العقود الأربعة جاءت مصطدمة ومتصادمة مع سنة حركة التاريخ الذي اتت بها استهلالاً المقدمة، وفي ضوء ذلك فإن إهمال الجوانب المضيئة عطاء في إبداعات العنصر الانساني بداعي الرفض لانصار حركة التجديد – إن صح اصلاً التسليم بكينونة التجديد– بعدم التواصل مع عطاءات السلف يسيء الى الحاضر ذاته ويقلل من إمكانيات الإبداع والتوجه نحو المستقبل بصورة خلاقة وهذا يعني ان الانفتاح على الماضي في كل تحولاته ومتغيراته ضرورة من ضرورات التنمية الشاملة لأن يقوم على شفافية المواجهة مع الذات لوضعها المازوم وعلى أكثر من صعيد وهل هناك ما هو أكثر تازماً من الوضع الحالي المعاش؟

قراءة مقتضبة للموروث الحضاري للمدينة التاريخية

في زمن الشعوب السحيق لحضارات الشرق والغرب على حد سواء شيدت منشات عكست المقدرات الفذة وعمق المعرفة لأساسيات هندسة البناء وخصائص سلوكها التي كانت عند الإنسان زمنئذ دون إدراك اسباب ذلك، فمنشات اقواس الجسور المائية الضخمة للرومان وأهرامات الحضارة المصرية ومعابد وقصور اكاسرة فارس ومعابد وقصور اباطرة الصين ومباني الحضارة الإغريقية امثلة حية تبعث الدهشة والحيرة الى يومنا هذا، فالتنوع في شكل المنشات والنسبية في نسقها المتسمة كماً هي من الكينونة التي يصعب الإتيان بها حتى في زماننا هذا ومع هذا تتجلى ظاهرة مميزة عميقة الدلالة في بعدها الانساني وتكاد تكون عاملاً مشتركاً في منشات تلك الحضارات وهي تلك الظاهرة التي تجسد العبودية للعنصر الإنساني مصدر تلك الإبداعات وادواتها فالبناء والقصور والمعابد ومنشات المقابر الابدية في مدن الحضارات القديمة سخر لخدمة ملوكها ونبلائها واستثمارات الأثرياء وصانعي الحرب والسلام والبشع من كل ذا وذاك تلك النهايات المأساوية للمعماريين والبناة والصناع والمهرة لتلك الحقب من الحضارات حتى الإسلامية منها حيناً، حيث كان يكرم المبدعون تخليداً لإبداعاتهم بالدفن احياء فور إنجاز مهام البناء لتامين سرية المخابئ والمنافذ في القصور وتحصيناتها.

وفي ذات زمن تلك الشعوب، وعلى خط عرض ١٥، ٢١ شمالاً وخط طول ٤٤، ١٢ شرقاً من كوكب الحياة وفي منتصف الجزء المرتفع من هضبة اليمن وعلى ارتفاع ٢٣٥٠ متراً من مستوى سطح البحر وفي موقع انشئت قصور امرائه وملوكه من حمم البراكين واسواره وبيوت بسطائه من مادة اللبن وتحت غلاف جوي عرف عنه الاعتدال لقرون عديدة نمت هذه المدينة الساحرة زهرة المدائن اليمنية : صنعاء هي واشجار الطلح والدوم وفواكه المشمش والكمثرى والتفاح والسفرجل والأعناب والأعشاب العطرة.

إن مدينة عريقة مثل صنعاء ابتدأ وجودها منذ زمن سحيق هي بحق نموذج للمدينة التاريخية التي استجمعت موروثاً حضارياً تراكمياً مهولاً وعندما نتناول الحديث عن هذه المدينة فإن مجموعة من العناصر تتزاحم مميزة او متداخلة لكي تدل على خصائص وشخصية هذه المدينة كبيئة حضرية او مأثر ملحمة انتصاراتها على الغزاة القادمين عبر البحار او حتى المغامرين المحليين، حوصرت خلالها مرات عدة، والحق بها في اطوار أخرى خراب ودمار متكرر، ناهيك عن خراب غير مرة أصاب المدينة جراء الزلازل وتلك الماسي والأهوال جعلتها من أكثر المدن اليمنية عذاباً، إلا ان شيئاً لم يحدث لتلك القدرات الكامنة على استرداد عافيتها والتجدد والعطاء الخصب بكثير من التحدي حالت دون ان تنتهك اصالة شخصيتها التقليدية وخصائص معمارها وتماسكها المدني.

خصائص البيئة الحضرية للمدينة

بداية لابد من تشخص واضح للإطار العام لماهية البيئة ومن ثم البيئة الحضرية.

تعرف المعاجم الإنجليزية البيئة: «مجموعة الظروف والمؤثرات الخارجية التي لها تاثير في حياة الكائنات بما فيها الإنسان» فالبيئة كمفهوم عام هي الوسط المحيط الذي يؤثر في حياة الكائنات الحية ونموها وتستمد منها المقومات الجوهرية لكينونتها وياتي الإنسان في مقدمتها وهي ايضاً تشمل علاقة الإنسان بالإنسان وتتكفل المؤسسات الاجتماعية ومنظومة العادات والأخلاق والقيم والادبان إعمالاً بذلك، ومن المنظور الهندسي يمكن استخلاص نوعين اساسيين من البيئة: الأول البيئة الطبيعية هبة الخالق عز وجل وتتضمن المخلوقات الحية والآخر البيئة الحضرية التي تاتي كنتاج صنع الإنسان المستخلف على البيئة الطبيعية..

موقع المدينة: لا احد يعلم كيف تم اكتشاف وتحديد موقعها إلا ان الأهم في الأمر هو ان الموقع واعتدال المناخ وتميز فصول السنة ولطافة الشتاء وتوازن الطقس في الصيف مع هطول الأمطار وان المدى الحراري فيها متدن نسبياً كانت في مجموعها اثراً كبيراً في روح ووجدان الإنسان في ذلك الربع الجميل وتؤكد بعض الأخبار القديمة ان اليمنيين لم يصنعوا صنعاء كما صنعت مدن عدة بل كانت جملة العوامل تلك مصدر إلهام اسهمت في تشكيل وتكوين تلك المدينة.

تشكيل المدينة: لقد قامت مدينة صنعاء على ترتيب عضوي في تنظيم شوارعها وازقتها وفي رفع واجهات المساكن المطلة على الممرات التي لم تكن مخصصة الا للمشاة وبعض الدواب والعربات الصغيرة وكان هذا الترتيب منسجماً مع الحاجات اليومية ومع الدوافع الاجتماعية التي تجعل كل حارة في كل حي أشبه بمجموعات سكانية متآلفة، وفي المدينة تمتد الشوارع مع امتداد الحاجة الى المواصلات السهلة والممتعة لتوصل الناس من بيوتهم المغلقة الى مراكز تجمعهم في المساجد والأسواق.

الإسقاطات الهامة للخصائص البيئية للمدينة

اتسم الهيكل التخطيطي للمدينة بنظام متناسق لأقسام وعناصر أرض المدينة المتبادلة الترابط مع بعضها البعض .. وذلك بتقسيم أرض المدينة الى مناطق ذات مهام وظيفية مخصصة (مبان سكنية، مرافق المدينة العامة، مناطق الورش الصناعية، مناطق الأسواق .. الخ).

مثالية مطلقة للتطوير ولتسخير المصادر المتاحة في الوسط المحيط للتجمعات السكنية في الموقع الجغرافي المميز.

الأخذ في الأعتبار لتاثيرات درجة الإشعاع الشمسي جراء انتشار الأشجار والأسطح الخضراء وطبيعة المواد العاكسة المستخدمة بسطوح المباني ولون الواجهات والتربة.

الرطوبة النسبية من الرياح التي تحملها معها من الرطوبة الناجمة عن التبخير من الأوراق والتربة.

النظافة كانت قيمة دينية واجتماعية الفقراء يبذلون عناية فائقة في تجميل منازلهم كما أن الأقدام وبساطة وسائل المواصلات داخل المدينة لم تكن تثير الأتربة والغبار وتميزت المدينة بالنقاء المطلق من تلوث الهواء.

اتباع نظام صارم للحفاظ على البيئة وحمايتها باتباع نظام فريد للتدوير(اي إعادة استخدام) كل انواع المخلفات.

الكفاءة العالية للإكتفاء الذاتي والقدرة الكامنة للحماية الذاتية من الحالات الطارئة.

خصائص البناء التقليدي للمدينة

البناء التقليدي للمدينة من روائع العمل الهندسي فالشكل والنسق والكيفية الخلاقة لتسخير المصادر المتنوعة لمواد البناء شواهد تعكس الإبداعات المعرفية لقدماء البناة، فالبناء التقليدي اليمني واعمال التشييد تمت لتأدية الوظائف المحددة لها فتطوير نسق البناء في إطار التجمعات المحددة عكست تناغماً مطلقاً مع الطقس والبيئة المحيطة بها، فمنظوم البناء محدد المعالم هندسياً ومجسد لنمط البناء التقليدي والأهم من هذا وذاك هي تلك الكينونة المتمثلة في ان معماري هذه المدينة وقتئذ لم يكن في متناولهم معارف منهجية وقدرات كهذه المتعارف عليه في زماننا هذا ومع ذلك فإن المنشات التي شيدت تعكس صورة حية عن ذهنية مؤسسة على مهارات فذة تتميز بإدراك السلوك الإنشائي للمنشات التي يشيدونها دون معرفة خلفية أسباب ذلك السلوك وهذا النوع من المهارات يعرف علمياً – مجال التطبيق الهندسي لمستوى درجة المهارات – بالحدس الهندسي وهذا النوع من المهارات لا يرقى إليه المهندس المتخصص الا بعد سنوات من التدرج في ممارسة المهنة نظرياً وتطبيقياً.

إن المنشات التقليدية لمدينة صنعاء والمطورة في نطاق تجمعاتها السكانية ذات الخصوصية المميزة بها – مكاناً وطقساً – بنيت بكيفية عكست تناغماً نبيلاً وفريداً مع البيئة المحيطة بها فتطور شكل وانواع الإنشاءات امتدت لتغطي اغراضاً مهولة كما وكيفاً وهي شيدت بمقومات بناء واسع مفرداتها، فهي – أي المنشات متينة ذات عمر افتراضي طويل الأمد وبملامح جمالية سارة ومبهجة والمجموعة المتنوعة والغنية من المنشات في نطاق الرقعة المحتلة والصغيرة نسبياً يندر ان تجد مثيلاً لها .. والأهم في الأمر كيفية تسخير المتاح من مصادر المواد في نطاق الفراغ المحتل من تلك التجمعات وتحويله الى مخرجات لمواد بناء اخرى مستحدثة بمهارة ودقة بديعين ومن ثم استخدامها في البناء بدقة ومهارة لا تقل في الإبداع والتي حقاً يستحيل تكرارها.

الإسقاطات الهامة لخصائص البناء.

سلطت الأسطر السابقة الضوء على جوانب مشرقة من الصورة المجسدة لصناعة البناء التقليدي في اليمن.

فقد كانت – أي الصناعة التقليدية لنمط البناء – من الروعة والتكامل بمقياس البعد الزماني والمكاني وظلت في عنفوان الروعة ذاتها معبرة حتى يوم الناس هذا.

لقد ادرك إنسان هذه المدينة التي تستجمع قدراً وفيراً من هذا النمط الفريد من البعد التراثي والثقافي فمن الخواص الهامة والمميزة للتراث الثقافي لمدينة صنعاء على وجه الخصوص هي تلك العلاقة القائمة على الحفاظ على التراث والبيئة الاجتماعية كائنان مرتبط بتقاليد راسخة الجذور فقد ادرك في طور مبكر من تاريخه تلك الحقيقة المجسدة بأن المبنى يصبح جزءاً من البيئة فور الفراغ من بنائه تماماً كشجرة او كحجر ويصبح معرضاً لنفس تاثيرات الشمس أو الأمطار أو الرياح كأي شيء آخر متواجد في البيئة فإذا ما استطاع ان يواجه الضغوط والمعضلات المناخية وفي الوقت نفسه يستعمل الموارد المناخية والطبيعية المتاحة من أجل تحقيق راحة الإنسان داخل المبنى الأمر الذي يمكن معه ان يطلق على هذا المبنى متوازناً مناخياً نورد بعضاً من جوانبها المضيئة في نقاط موجزة في ما يلي:

– منظومة بناء محددة المعالم ذات قدرة لبناء التقليدية.
– التطوير المتناغم عشقاً مع الطقس والبيئة المحيطة تتنوع مع تنوع المكان.
– التقنين الذي كان قائماً وقتئذ لمهن صناعة البناء والذي ينظم الممارسة وفق إطار تشريع مؤسس وملزم عرفياً للمهن المختلفة لتلك الصناعة.
– التدريب للمهن يتم على أيدي مهرة من البناة الأسبق في المهن ولا يتم ممارسته في السوق إلا في إطار الآلية المتعارف عليها وقتئذ.
– مستوى راق للمهارات الفردية وكذلك في صناعة مواد البناء التقليدية.
– التدريب كان يتم مباشرة في مواقع البناء أو في الغالب وفق آلية التوارث الأسري التي تتم في نطاق البيوت المتخصصة يتوارث الآباء عن الأجداد جيلاً وراء جيل.
– الحيوية الدائمة النشاط على إحياء فن متجدد متصل بنمو السكان ساعد الإيحائية الفردية في الذهنية ومهارات لقدرات التواصل، الأمر الذي دفع في الإسهام بفاعلية متبادلة للمعرفة.
– الإبداعية الفردية المتميزة زمنئذ لم تكن مصدراً للتحدي للمجتمع وتقاليده وعاداته لإضفاء أي نوع من ثورية التمرد عليه بل ظل في إطارها يؤثر ويتاثر وفي مطاف اخير ليتمخض عنه مخرجات بمحصلة إبداعات جسدت بخصوصيات متميزة في الروعة والجمال وفي طليعتها تلك المدينة الساحرة «صنعاء».

الدروس المستوحاة من الموروث

زمنياً نحن على بعد يزيد قليلاً عن اربعة عقود للتجربة الفريدة الخصبة التي استعرضنا بكثير من الاقتضاب الجوانب المشرقة منها ويجدر القول هنا اننا اولاً لم نعطها حق قدرها ومن جانب آخر جاءت هذه القراءة في زمن غير زمان الناس وقتئذ ومع هذا فما جاء اعلاه عن الموروث موح وملهم وكاف لنطلق حكماً ندعي دون مكابرة لهذا الموروث بالكمال المطلق دون غلو.

إن القراءة تمت وفق رؤى اطرت بمقاييس منهجية ووعي دقيق كما اسلفنا وفي خطوة نلتمس معها التقويم بمعيار المتطلبات المعاصرة لتكاملية الوسط البيئي والخطوط العريضة التي تجسد المرتكزات الأساسية بعناصرها الستة كما جاء في البند (٣) نجد تطابقاً متناغماً مع تلك المرتكزات بطريقة مثيرة للدهشة.

استاذ الهندسة الإنشائية المشارك –قسم الهندسة المدنية– جامعة صنعاء